

الحدائق الإسلامية الخارجية المحيطة بالمبنى

ISLAMIC GARDENS AROUND A BUILDING

إذا كان ارتباط الحديقة الإسلامية بالفناء الداخلي ارتباطاً حيويًا وجوهريًا، فهذا لا يعني أن الحضارة الإسلامية لم تبتكر أيضًا حدائق خارجية. فهناك كثير من المدن والمواقع تضم حدائق مهمة، وتتميز في هذا المجال العمارة الإسلامية المغولية التي انتشرت في كل من الهند وباكستان وأفغانستان، حيث لا زالت الحدائق العامة والخاصة وحدائق القلاع والأضرحة من هذه المرحلة تلعب دورًا هامًا في حياة الناس اليومية. وكذلك الحال أيضًا في العمارة الصفوية في إيران التي تركت لنا أمثلة مميزة على الحدائق في مدن كثيرة وجعلت ميادين المدن عبارة عن حديقة كما في ميدان نقش جهان في أصفهان.

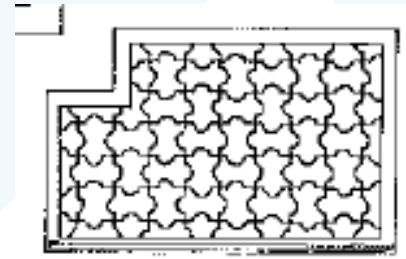
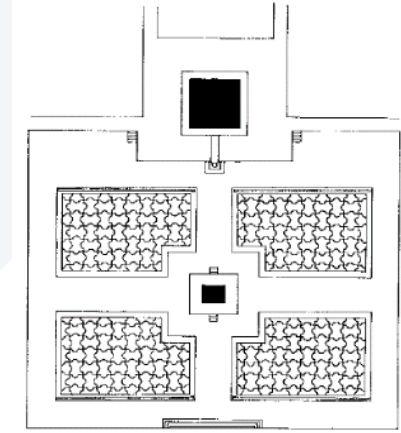
1. حدائق القلاع

ارتبط مكان إقامة الطبقة الحاكمة في كثير من الأحيان بالعمارة الدفاعية، حيث أصبحت القلاع الضخمة الموجودة على أطراف المدن تضم قصر الحاكم ويلحق بها حدائق مميزة وهو ما نراه في أمثلة عديدة في الهند مثل قلعة الحمراء في مدينة دلهي والقلعة الحمراء في أغرا وقلعة أمبر في راجستان والحديقة المتدرجة الملحقة بها المعروفة بحديقة قيسار كياري.

1.1 حدائق القلعة الحمراء في أغرا Red Fort in Agra

أنشئت القلعة الحمراء من قبل الشاه أكبر عام 1565 م، الذي نقل عاصمة المغول من مدينة دلهي في الهند إلى مدينة أغرا لتكون مقرًا للحكم واستمر استخدامها كعاصمة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. تقع القلعة على تلة طبيعية تطل على نهر جامونا وأسوارها الخارجية الثخينة المدعمة بالأبراج نصف الدائرية مبنية بالقرميد المغطى بالكامل من الخارج بالحجارة الرملية الحمراء وهو ما أعطى القلعة اسمها.

تضم القلعة مجموعة من المباني، ففيها عدة قصور مميزة مثل قصر جهانكير وقصر شاه جاهان المبني بالرخام الأبيض إضافة إلى مساجد وحمامات وعدة حدائق واسعة.

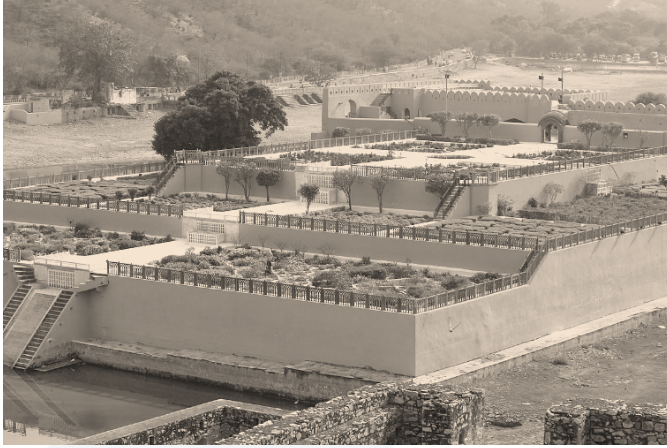


حديقة أنغوري باغ في القلعة الحمراء في أgra: التصميم الرباعي وارتباطه بالقصر
مع تفصيل لتنسيق المسطحات النباتية الأربعة

تشتهر فيها حديقة قصر شاه جهان المعروفة بأنغوري باغ Angori Bagh التي يطل عليها قصر رخامي صغير ينفتح في الجهة الرئيسية عبر رواق على حديقة واسعة ذات تصميم رباعي. تشكل ممرات عريضة مرصوفة بالرخام الأبيض المحورين المتعامدين وتبرز عند تقاطعهما بركة مربعة ترتفع عن الأرض ويحيط بها مساحة مبلطة يمكن استخدامها كمجلس. يتم الربط بصريا وعمليا مع القصر الذي يرتفع على مصطبة من خلال بركة مربعة كبيرة تقع أمام القصر وتصب مياهها في قناة ثم في سلسبيل لتنتهي بعدها في البركة المركزية. المسطحات الحدائقية الأربعة لا تضم أشجارا أو شجيرات بل هي مصممة على هيئة مسطحات مقسومة ببلاطات فخارية إلى تشكيلات هندسية وتتم زراعتها بالتناوب بنباتات تمتد ولها لونين مختلفين من الأخضر يحيط بها إطار مشكل من الأزهار تعطي حديقة ذات سمة هادئة جدا.

2.1. حديقة قيسار كياري التابعة لقلعة أمبر Kesar Kiari Garden

تقع حديقة قيسار كياري التابعة لقلعة أمبر الواقعة في إقليم راجستان بالهند خارج أسوار القلعة ضمن بحيرة ماوتا، التي تطل عليها القلعة.



حديقة قيسار كياري المتدرجة التابعة لقلعة أمبر

تتميز الحديقة المستطيلة الشكل بتدرجها فهي مكونة من أربع مصاطب. تتواجد في المصطبة العليا فراغات معمارية تطل على المصطبة الأدنى المكونة من حديقة ذات تصميم رباعي، تتشكل من بركة كبيرة مثمثة الشكل تقع في مركز تقاطع محورين مكونين من قنوات مائية عريضة حولها ممرات وتمتد في المحيط مسطحات نباتية مربعة مقسمة إلى أشكال هندسية. تستمر قنوات المياه على امتداد المحور الرئيس وصولاً إلى المصطبتين الأدنى، وقبل أن تتدفق المياه عبر سلسبيل أو شلالات من مصطبة إلى أخرى يتواجد مجلس مربع مميز، يطل الأخير منها على البحيرة مباشرة. جميع الأحواض النباتية ذات أشكال منتظمة ومقسمة إلى تشكيلات هندسية وتضم فقط نباتات صغيرة وأزهاراً ويشتهر فيها الحبق الهندي ذو الرائحة العطرة.

2. حدائق الأضرحة

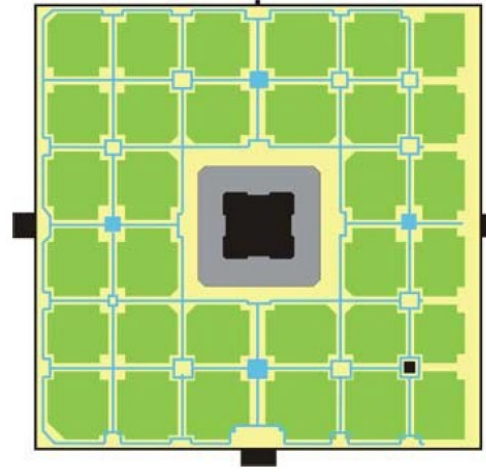
اشتهرت الهند المغولية أيضاً بحدائق الأضرحة. وهي تعتمد التصميم الرباعي "جهار باغ" ولكن بدلا من السرادق أو مكان الجلوس يوضع الضريح وسط الحديقة الرباعية ليرمز إلى رجوع الروح الخالدة إلى باربيها عند الوفاة ضمن الحديقة التي تمثل الجنة. وتنتفح حديقة الضريح من المركز نحو الخارج نحو الجهات الأربع. ويبدو أن بعضاً من هذه الحدائق والأضرحة كان تبنى أثناء حياة صاحبها وأن المبنى الذي كان يبني في مركزها يستخدم للاستقبال والحفلات والحديقة تستخدم كحديقة خاصة للراحة والتنزه ثم تتحول عند وفاة الملك إلى حديقة ضريح تفتح للعامة.

سنتعرف على ثلاث من أشهر حدائق الأضرحة وهي حديقة ضريح همايون في دلهي وحديقة ضريح جهانكير في لاهور وحديقة ضريح تاج محل في أغرا وكلها تتبع المبادئ المذكورة ولكن مع وجود اختلافات بينها.

1.2. حديقة ضريح همايون في دلهي Hamayun Tomb Garden in Delhi

ضريح ناصر الدين محمد همايون (فترة حكمه 1530-1540 ثم 1555-1556 م)، ثاني حكام الهند المغول بعد والده بابر، هو أول ضريح في الهند تمت إحاطته بحديقة وكانت الأولى التي استخدم فيها التصميم الرباعي. بني الضريح قرب نهر يامونا Yamuna في مدينة دلهي، التي كانت عاصمة همايون. وتم البناء ما بين عامي 1562-1571 م من قبل المعمار سيد محمد بن ميراث غياث الدين.

يقوم الضريح الضخم على مصطبة بارتفاع 7 م تحيط بها الأروقة من جميع الجهات. الضريح عبارة عن مبنى متناظر يفتح في وسط كل جهة من جهاته الأربع إيوان كبير يحيط به من الجانبين جناحان يضمنان أواوين أصغر. ويتوج المبنى من الأعلى قبة بصلية ضخمة مكسوة بالرخام الأبيض ويحيط بها فوق كل جناح جانبي ما يشبه الشادروان عبارة عن قبة صغيرة محمولة على أعمدة تعرف في عمارة الهند المغولية بتشهارتي chhartis.



حديقة ضريح همايون في دلهي: مخطط الحديقة - صور جوية - واجهة الضريح مع المحور المائي

مبنى الضريح يشكل مركز حديقة واسعة تحيط به من جوانبه الأربعة تمثل قصر الإمبراطور في الجنة. تقسم الحديقة المسورة المربعة الشكل إلى 36 مربعا بواسطة شبكة من قنوات المياه الرفيعة والممرات مشكلة ثمانية حدائق متماثلة تقريبا ذات تصميم رباعي. تنطلق المحاور الرئيسية الأربعة من الأواوين الكبيرة للمبنى وتنتهي في السور عند أربع بوابات، أهمها البوابة الغربية. تتقاطع قنوات المياه عند المحاور الرئيسية ضمن برك مائية مربعة غائرة في الأرض تنعكس فيها صورة واجهات المبنى. في حين تتقاطع المحاور الأخرى ضمن برك مربعة أصغر وأبسط. المسطحات الحدائقية الكبيرة تنخفض عن مستوى الممرات حيث تتوزع ضمن المرج الأخضر بشكل عفوي شجيرات الأزهار والأشجار المثمرة وبعض الأشجار الأخرى.

2.2. حديقة ضريح جهانكير في لاهور Jahangir Tomb Garden in Lahore

تعد حديقة ضريح نور الدين شاه جهانكير رابع حكام الهند المغول (فترة حكمه 1605-1627م) من أكبر الأمثلة على حدائق الأضرحة. وهي تقع على بعد 5 كم إلى الشمال من مدينة لاهور الباكستانية وتم بناؤها ما بين عامي 1627-1637م من قبل زوجته نور جهان وابنه الذي علا العرش بعده شاه جهان.

الحديقة الواسعة مربعة الشكل مكونة من أربعة حدائق من نوع جهار باغ (أي 4 x 4 مربعات) (التصميم الرباعي). يشكل مبنى الضريح ذو الشكل المربع (84 x 84 م) مركز الحديقة وهو مكون من طابق واحد فقط ويرتفع على مصطبة بسيطة وينفتح نحو الجهات الأربعة بإيوان مركزي وأروقة جانبية. وتؤطر المبنى أربع مآذن تقوم في الزوايا. تمتد من محاور المبنى بالاتجاهات الأربعة محاور الحدائق الرباعية المكونة من قناة مائية تحدها من الطرفين مسطحات نباتية طولانية ثم ممرات وتشكل نقطة التقائها برك مربعة مرتفعة، في حين تتقاطع المحاور الأخرى ضمن برك مثمانية الشكل. المسطحات الحدائقية المربعة المحيطة، التي تنخفض عن مستوى الممرات، عبارة عن مرج تتوزع فيه بشكل عفوي شجيرات الأزهار والأشجار المثمرة وبعض الأشجار الكبيرة.

تنتهي المحاور الأربعة الرئيسية من الخارج ببوابات أهمها البوابة الرئيسية في جهة الغرب التي تأخذ شكل إيوان كبير مع إيوانين أصغر على الجانبين وتضم مسجدا وهي تنفتح على حديقة أخرى أمامية ذات تصميم رباعي محاطة بسور مستطيل الشكل مع بوابات أخرى في نهاية المحاور.



حديقة ضريح جهانكير في لاهور: صور جوية - تقاطع محاور الحديقة المائتة - واجهة الضريح

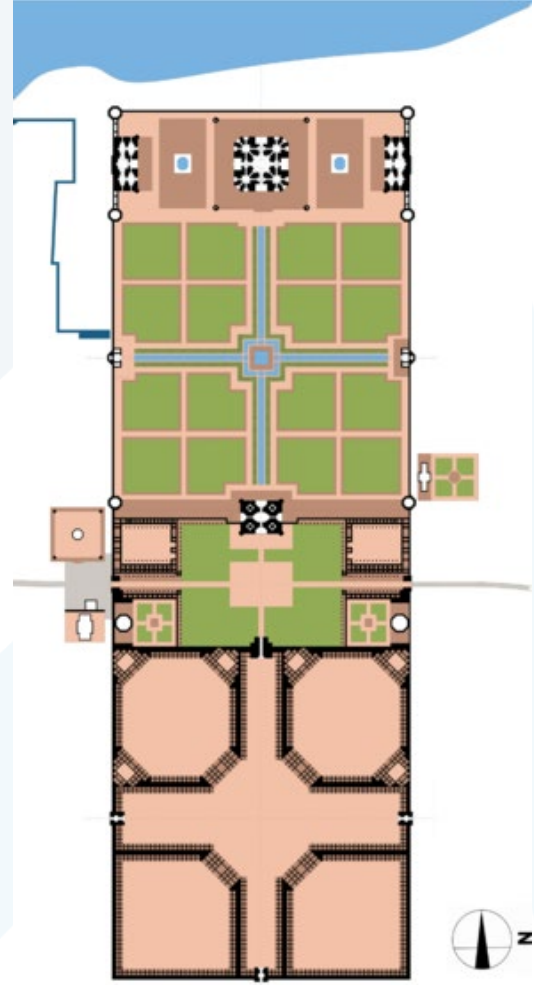
3.2. حديقة ضريح تاج محل في أغرا Taj Mahal Garden in Agra

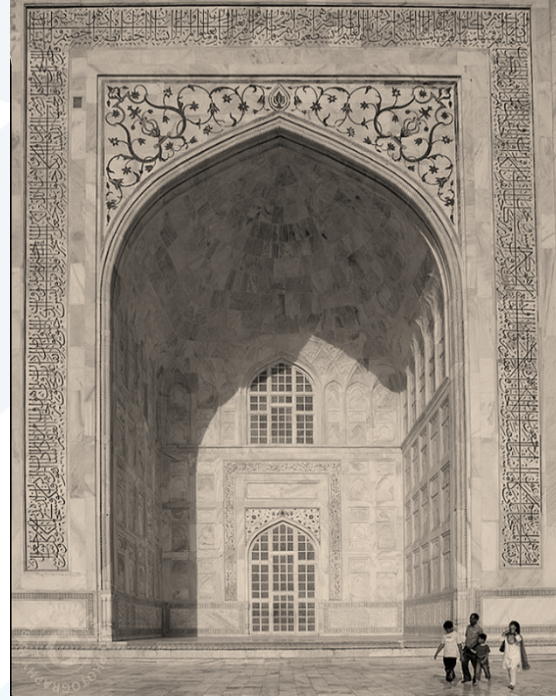
أشهر حدائق الأضرحة في الهند هي الحدائق المحيطة بضريح تاج محل الواقع على طرف مدينة أغرا. بناه شاه جهان لتدفن فيه زوجته المفضلة ممتاز محل التي توفيت عام 1631 م. استغرق إنجاز البناء والحديقة ما يزيد عن 22 عاما من عام 1632-1654 م، وعمل فيه حوالي 20 ألف عامل وألف فيل لنقل مواد البناء.

أول ما يلفت النظر في هذا الموقع بالمقارنة مع حدائق الأضرحة السابقة هو اختيار موقع جانبي لمبنى الضريح فهو يقع هنا في نهاية المحور الرئيس للتصميم الرباعي للحديقة. المبنى يرتفع على مصطبة مستطيلة تطل مباشرة على نهر يامونا. يتوسطها الضريح الذي يقوم على مصطبة خاصة مربعة الشكل ارتفاعها 5 م (أبعادها 96 x 96م). مبنى الضريح غني عن التعريف فهو عبارة عن مثنم غير منتظم يفتح في منتصف كل من واجهاته الأربع إيوان كبير محاط بأواوين أصغر موزعة على طابقين. تتوج المبنى قبة بصليية محاطة بأربعة أكشاك chhartis تحمل قبابا صغيرة. المبنى المشيد بالقرميد مكسي بالكامل بالرخام الأبيض المطعم بالحجارة الكريمة ونصف الكريمة لتشكيل الزخارف النباتية والخطية التي تغطي سطوحه. تؤطر الضريح أربع مآذن أسطوانية تقع على زوايا المصطبة المربعة. ويتم مبنيان جانبيان يقعان على نفس المحور التشكيل، المبنيان متماثلان مكسيان بالحجر الرملي الأحمر مع بعض الرخام التزييني الأبيض، الغربي منها يضم مسجدا والشرقي كان معدا للضيافة.

الحديقة الواسعة المستطيلة الشكل محاطة بسور خارجي من الحجر الرملي الأحمر، ويتم الدخول إليها عبر بوابة رئيسية تقع في النهاية الجنوبية للمحور الرئيس مقابل الضريح. تمتد الحديقة ما بين المدخل والضريح على مساحة 18 هكتارا واعتمد في تنسيقها التصميم الرباعي فهي تقسم بواسطة محورين رئيسيين متعامدين إلى أربعة حدائق ذات تصميم رباعي. المحورين الرئيسيين مكونين من قناة مائية عريضة وعلى كل من طرفيها ممر ضيق ثم حوض نباتي طولاني ثم ممر عريض. تتقاطع في المركز ضمن بركة مربعة كبيرة ترتفع عن المحيط. طريقة تنسيق النباتات اليوم ضمن الأحواض المستطيلة المرافقة للمحاور المكونة من مرج منسق وفق تشكيلات زخرفية نجمية وتتخللها أزهار وأشجار بقس مشدبة ليست أصيلة وإنما متأثرة بتنسيق الحدائق الإنكليزية. وتذكر المصادر القديمة أن المسطحات الحدائقية الواسعة كانت سابقا حديقة بسيطة مزروعة بالأشجار المثمرة التي يعود ريعها على خدمة الضريح.

تكمل المجمع من الخارج حديقة إضافية مستطيلة الشكل ومحاطة بسور تمتد إلى الجنوب على كامل عرض المجمع تضم في الوسط حديقة ذات تصميم رباعي يحيط بها في الزوايا فناءان معدان لسكن خدمة الضريح وفناءان آخران يضمان أضرحة للعائلة المالكة. وإلى الجنوب من ذلك كله تمتد أسواق واسعة لبيع احتياجات زوار الضريح.





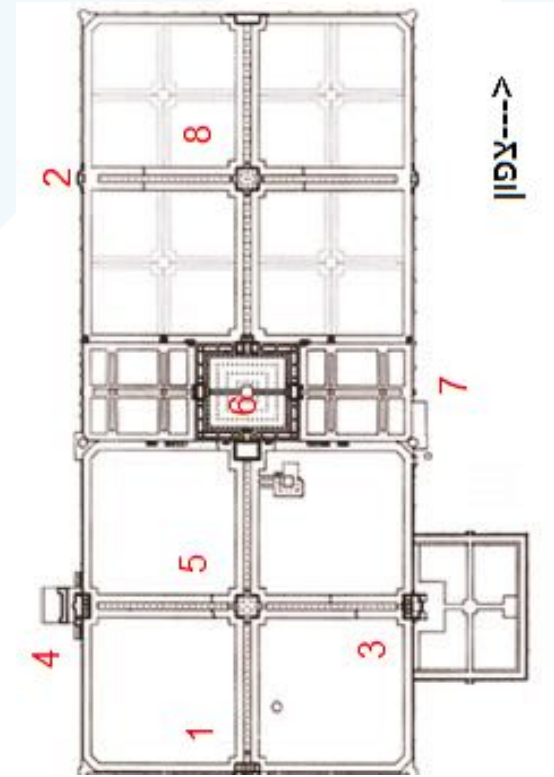
ضريح تاج محل في أغرا: تفاصيل للخزاف النباتية

3. الحدائق الخاصة – حدائق المتعة

يعود الاهتمام بإنشاء الحدائق الخاصة إلى بابر الحاكم المؤسس للسلالة المغولية في الهند. فقد كان شاعرا مثقفا مهتما بتصميم الحدائق ومن أولى الحدائق التي أنشأها في فترة حكمه هي الحديقة المعروفة بحديقة باغ بابر في كابول (أفغانستان)، التي نقل إليها ضريحه لاحقا. وتابع ورثته هذا التقليد من بعده إذ تتوزع حدائق إسلامية مهمة ما بين الهند وباكستان وأفغانستان وإيران، حيث قام ملوك المغول بإنشاء حدائق خاصة واسعة في منطقة كشمير وغيرها يلجؤون إليها هربا من حر الصيف في عاصمتهم الهندية أغرا منها حديقة شاليمار باغ في كشمير وحديقة شاليمار باغ في لاهور وكلها تحولت مع الوقت من حدائق خاصة إلى حدائق عامة مفتوحة للناس. تعتمد هذه الحدائق في تنسيقها بشكل أساسي على التصميم الرباعي للحدائق وما يرتبط بها من قنوات ومسطحات مائية ومقصورات ومجالس مختلفة.



حديقة باغ بابور في كابول: حديقة مسورة متدرجة تخترقها قناة مائية متدرجة



حديقة شاليمار باغ في لاهور (باكستان): مخطط الحديقة - صور جوية تبين التصميم الرباعي حول بركة مركزية